الرد على شبهة ادعائهم أن السنة النبوية ليست وحياً من قبل الله –سبحانه – على رسوله – صلى الله عليه وسلم – ولكنه اجتهاد وتصرف من النبي

أ.د. محمود محمد مزروعة

هذه الشبهة تقوم على أساس ادعائهم أن السنة النبوية ليست وحياً من قبل الله –سبحانه – على رسوله – صلى الله عليه وسلم – ولكنه اجتهاد وتصرف من النبي – صلى الله عليه وسلم – بمقتضى بشريته، وهو – صلى الله عليه وسلم – بهذا الاعتبار يصيب ويخطئ، فالسنة ليست وحياً، وبالتالي فهي ليست منزهة عن الخطأ، لأن المنزه عن الخطأ إنما هو الوحي، ولا وحي إلا القرآن المجيد. وإذا كانت أقوال الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأفعاله ليست وحياً، فلسنا ملزمين باتباعها، ولا هي مصدر من مصادر التشريع. وهم يذكرون أموراً يزعمون أنها أدلة على أن السنة ليست وحياً، وإنما هي اجتهاد من النبي – صلى الله عليه وسلم– باعتباره بشراً ...

فمن أدلتهم المزعومة على ذلك، أولاً : مسألة تأبير النخل، حيث أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – أصحابه أن يتركوا النخل فلا يؤبِّروه – يلقحوه – فأطاعوا أمره ففسد النخل، وخسر الناس ثمار نخيلهم .. وثانياً : مسألة نزول جيش المسلمين في غزوة بدر، حيث أنزله الرسول – صلى الله عليه وسلم – منزلاً – ثم ظهر خطأ هذا المنزل، فانتقل الجيش إلى منزل آخر بناء على رأى صحابي من أصحابه – رضوان الله عليهم – .. وثالثاً : مسألة أسرى بدر، حيث استحياهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولم يقتلهم، وأخذ منهم الفداء،ونزل القرآن مبيناً خطأ ذلك الاجتهاد وإصابة اجتهاد عمر ورأيه في المسألة. ورابعاً : اعتبار الصحابة –رضوان الله عليهم– أن السنة ليست وحياً، وإقرارهم بذلك عملياً، وذلك حين خالفوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – في صلح الحديبية، حين ذبح وحلق، بينما رفضوا هم ذلك معتبرين ذلك اجتهاداً من النبي، وليس وحياً، ولو اعتبروه وحياً ما خالفوا( ).

الرد على هذه الشبهة وتفنيدها :

إن هذه الشبهة التي أوردها هؤلاء سبقهم إليها بعض الطوائف من منكري سنة النبي – صلى الله عليه وسلم –، وقد ذكرنا ما زعموه أدلة لهم على ما ذهبوا إليه، وهذه الشبهة مع ما زعموه أدلة عليها ما كان ينبغي أن تصدر عن مسلم، أو عمن يدعي أنه مسلم، فإن الأمة المسلمة مجمعة سلفاً وخلفاً وإلى أن تقوم الساعة على أن السنة النبوية المطهرة وحي من قبل الله – تعالى – على رسوله – صلى الله عليه وسلم –، وأن النبي – صلى الله عليه وسلم – لا ينطق عن الهوى، وإجماع الأمة المسلمة على ذلك ليس صادراً عن

فراغ أو عن هوى، ولكنه الحق الذي لا يعارضه إلا غويٌّ مبين ..

والأدلة على أن السنة وحي من الله – تعالى – على نبيه – صلى الله عليه وسلم – كثيرة وعديدة سبق أن ذكرناها في مبحث حجية السنة، لكن لا بأس من الإشارة إلى أهمها هنا:

أولاً : إخبار الله – تعالى – بذلك في نصوص قاطعة في آيات بينات من القرآن المجيد الذي ينتسب إليه هؤلاء .. من ذلك قوله – عز وجل – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – :]وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى [(النجم:٣-٤). ومن ذلك قوله – عز وجل – عن نبيه – صلى الله عليه وسلم – :] ولو تقول علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين [(الحاقة:٤٤-٤٧). فهذه الآيات ليس فيها إخبار بأن الرسول لا ينطق إلا بالوحي فقط، بل فيها إخبار بأنه – صلى الله عليه وسلم – لو افترى على الله – تعالى – شيئاً لم يوحه الله إليه لقتله الله وقضى عليه.. وحيث إن الله – تعالى – لم يأخذ من رسوله باليمين، ولم يقطع منه الوتين، أي لم يقض عليه، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما نطق إلا بما أوحاه الله – تعالى – إليه.

ثانياً : النصوص القاطعة من كتاب الله المجيد التي يأمر الله – عز وجل – فيها المؤمنين باتباع الرسول – صلى الله عليه وسلم – في كل ما يأخذ وما يدع، وما يأمر وما ينهى، من ذلك قول الله – تبارك وتعالى:] وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا[(الحشر:٧). وقول الله – سبحانه – :] يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم [(محمد:٣٣).

ثالثاً : ترتيب الله – تعالى – الإيمان على طاعة رسوله – صلى الله عليه وسلم – والرضا بحكمه، والتسليم لأمره ونهيه في كل ما يراه ويحكم به، وذلك في قول الله – عز وجل – :] فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما [(النساء:٦٥). ومن ذلك وصف الله – تعالى – المؤمنين بأن شأنهم مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وذلك في قوله – سبحانه – :] إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون [(النور:٥١).

رابعاً : إجماع الأئمة كلها على أن السنة وحي من قبل الله – عز وجل – إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – وبخاصة صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين – حيث كانوا في حياته الشريفة يحفظون أقواله – صلى الله عليه وسلم – ويتذاكرونها فيما بينهم، وكانوا يتحرون الاقتداء به – صلى الله عليه وسلم – في كل ما يأتي وما يذر – فيما ليس بخصوصية له – صلى الله عليه وسلم – مستجيبين لتوجيه الله – تعالى – في قوله لأمة الإسلام :] لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان

يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا [(الأحزاب:٢١). وقد كان الذي يعرف الكتابة منهم يكتب لنفسه خاصة. وقد كان ثمة عدد من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يكتبون لأنفسهم في حياته الشريفة. ثم بعد حياته – صلى الله عليه وسلم – كانت المسألة تُعرَضُ للصحابة – رضوان الله عليهم – فيبحثون في القرآن، فإذا لم يجدوا حكمها، بحثوا في السنة الشريفة وحكموا فيها بما وردت به السنة، وكان سائلهم يسأل أصحابه وإخوانه قائلاً : أنشدكم الله هل سمع أحدكم من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شيئاً في المسألة ؟ فإذا جاءهم حكم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على لسان أصحابه أو بعضهم سارعوا إلى تطبيقه والأخذ به .

هذه تذكرة بالأدلة القاطعة على أن السنة وحي من عند الله – تعالى – وقد سبق أن فصلنا ذلك في مبحث سابق عن حجية السنة، بما يغني عن الإعادة هنا.

أما ما أثاروه من مغالطات مدعين أنها أدلة على أن السنة النبوية المطهرة ليست وحياً ؛ فهو كلام ظاهر البطلان. ونحن نرد عليه – رغم وضوح بطلانه – إبطالاً لمزاعمهم.

١– وأول مزاعمهم الباطلة مسألة تأبير – تلقيح – النخل. وهي مسألة ترجع إلى التجربة والخبرة ولا علاقة لها بالوحي من قريب أو من بعيد. ومن المعلوم أن الأمور التي تقوم عليها معايش الناس وحياتهم العادية لا صلة لها بالوحي إلا فيما يتصل بها من حل وحرمة وإباحة. أما كيفية مزاولتها والقيام بها، فذلك متروك للخبرة والتجربة يزاولونها حسب ما ألفوا وتعودوا.. ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم تكن له سابقة خبرة بتأبير النخل، ولما رآهم يفعلون ذلك قال لهم " لو تركتموه لصلح " إما على هيئة الاستفهام، وإما على الاقتراح المبني على عدم التجربة. ولم يكن لذلك من صلة بالتشريع لا أمراً ولا نهياً. ولذلك لما تركوا تأبير النخل ولم يصلح، وحدثوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ذلك، قال لهم : (أنتم أعلم بأمور دنياكم).

٢– وأما ما أثاروه من منزل جيش المسلمين في غزوة بدر ؛ فقد كان ذلك بناء على رأي رآه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يكن ذلك عن وحي، وهذا بيِّن واضح، فإنه لما سأله أحد أصحابه – رضي الله عنهم – قائلاً : (أهذا منزل أنزلكه الله يا رسول الله، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (بل هو الرأي والحرب والمكيدة)، ولما أشار عليه صاحبه بمنزل أفضل انتقل اليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. فكون ذلك ليس عن وحي واضح. فلا يصح الاستشهاد به في مجال نفي الوحي فيما هو وحي.

٣– وأما مسألة الأسرى في بدر، فهي قد جمعت بين الرأي والوحي. فقد كان الرأي أولاً، ثم أعقبه الوحي بعد ذلك. وقضية الأسرى ببدر توضح لنا أمراً هاماً قد لا يتوفر في كثير غيرها من قضايا التشريع.

فرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أخذ في أسرى بدر بالرأي، فاستشار أصحابه – رضوان الله عليهم–، فكل أدلى برأيه، ثم مال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الرأي القائل باستحيائهم وأخذ الفداء منهم، وكان هذا رأي أبي بكر – رضي الله عنه –، وكان رأي عمر – رضي الله عنه – أن يقتل الأسرى جميعا – وبعد أن استقر الأمر على ذلك نزل الوحي على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يبين ما كان ينبغي أن يفعل في مسألة الأسرى، ويبين الصواب في القضية. يقول الله – سبحانه – في شأن فعل الرسول في أسرى بدر :] ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض. تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة. والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم. فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله. إن الله غفور رحيم [(الأنفال:٦٧-٦٩).

فقضية الأسرى بدأت بالرأي، ثم انتهت بالوحي. وهذه القضية بجملتها شاهدة على أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يقول ولا يفعل – فيما يتصل بالدين – إلا بوحي من عند الله – سبحانه –، وأن الله – سبحانه – لا يدع رسوله – صلى الله عليه وسلم – على غير صواب، حتى في حالة تصرفه برأيه واجتهاده وذلكم هو الأمر الهام الذي نَوَّهنا به قبلا، وخلاصته أن قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفعله في أمور الدين وحي، حتى ولو قال برأيه. لأنه إن قال أو فعل برأيه وكان صواباً موافقا لأمر الله أقره الله – تعالى – على ذلك. وكان إقرار الله – سبحانه – له دليلاً على موافقة عمله لمراد الله – تعالى – فيكون وحياً، وإن كان اجتهاد الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليس صواباً موافقاً لمراد الله – سبحانه – فإن الله – تعالى – لا يقره على ما قال أو فعل اجتهاداً، بل يصوب له ويصحح. وذلك كما حدث في أسرى بدر. حيث نزل فيها القرآن مصوباً ؛ وكما حدث في أوائل سورة " عبس " حيث نزل القرآن معاتباً .. وهكذا يتضح أن واقعة أسرى بدر شاهدة بأن السنة وحي من عند الله تعالى –، وأن الله – سبحانه – يحيط أقوال وأفعال رسوله بالوحي حتى ولو اجتهد برأيه.

وفيصل الأمر في القضايا الثلاث التي أثاروها شبهة من شبهاتهم ظانين أنها دليل على أن السنة النبوية ليست وحياً ؛ أن ما يصدر عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – نوعان : نوع يفعله بمقتضى بشريته – صلى الله عليه وسلم –، دون أن يوحى إليه فيه بشيء، وهذا النوع لا صلة له بالتشريع، وذلك في جل شؤونه المعيشية التي لا يتعلق شيء منها بالدين حلاً أو حرمة ومن ذلك رأيه في تأبير النخل. ونوع آخر يفعله – صلى الله عليه وسلم – بمقتضى كونه بشرا رسولاً، وفعله هذا إنما يقوم على وحي من قبل الله – تعالى. والأمران الأولان : تأبير النخل، ومنزل الجيش في بدر، من النوع الأول الذي فعله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – برأيه. والأمر الثالث اجتهد فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – رأيه وآراء محل مشورته من الصحابة – رضوان الله عليهم –، فنزل الوحي مصوباً ومبيناً الحكم الصحيح.